من كتاب كليلة ودمنة

# الكلب المخدوع

للأستاذ رضوان ابراهيم مصطفى

قال كليلة وهو يبصّر دمنة بشئون الحياة، ويفتح عينيه على عجائبها، ويستقبل به من شئونها ما ينبغي عليه، ويوقظ فيه الوعي، ويدرّب منه العقل على التفكير، والرأي على التدبير: —

واعلم يادمنة أن الحكيم جلت قدرته قد زوّد كل حيوان — في مملكتنا هذه — بغريزة، هي سر بقائه وحفظ كيانه، وهو بها ما هو، وبدونها ليس هو، وليس بشيء آخر غير ما هو!!

فاذا تخلى عنها أو تخلّت عنه خرج من دائرة الحيوانية الى دائرة أخرى، ربما كانت دائرة الجماد — بيد أنه متحرك!!

ومملكتنا هذه — لكي تيسر لها أسباب البقاء — لا بد أن تتحفز كل الغرائز المودعة في أفرادها لحياطتها وحمايتها، فالفرد مفتقر إلى غريزته الخاصة، يعيش بها ويهتدي بضيائها، وبكيف حياته كيف وجهته، وكيف سلحته بأساليبها لتذليل صعاب هذه الحياة.

والجماعة محتاجة إلى مجموعة الغرائز الفردية، لتتجمع منها أساليب السلوك الجماعي، لاحتفاظها بكيانها كتلة متماسكة متساندة في دفع الشر، متعاونة في استجلاب الخير.

أما اذا اطرح كل ما غرائزه ، فأننا نصبح أشبه ما نكون بمملكة الهوام التي تتخبط على غير هدى في أمورها على غير ناموس — فيما نحسب .

قال : يا دمنة ، وانت يا دمنة فاحذر أن تخدع عن غريزتك ، أو تتهاون في الاعتصام بها لحظة ، فانه لا أحد أصيع ممن يزلق إلى ذلك ، ولو هيىء له أن يصبح ملك الحيوان المتسلط على المصائر ، المتصرف في الأمور تصرفاً مطلقاً غير مقيد ولا محدود ، إذ هي التي تحفظ عليك الحياة ، وتمنحك القدرة على مجالدة عوادي الأيام وبأسائها ، وعلى مناهدة الغرائز المعتدة في المخلوقات الآخر .

فأذا تحللت منها ضعت في الغمار ، فرفك التيار ، فلم تستطع الاحتفاظ بالكرامة ، إن احتفظت بك الحياة ! !

ونصيحتي إليك — يا دمنة — أن تكون من عدوك على حذر أبد ، لا تأمنه ولو ضعف ، ولا تطمئن إليه وإن قرب ، ولا تغفل عنه مهما بعد ! !

فأن فاجأك منه شر كنت على يقظة وتحفز ، فما خسرت شيئاً .

وقد قالت الحكماء . لا يؤمننك من عدوك تغر ضاحك ، ولا خير طاريء ، ولا لين مصطنع ، ولا خدعة مزورة .

وقالوا : اخش العدو حتى كأنك تتوقع منه كل الشر في كل طرفة عين ، وكل خلجة نفس ، واستمسل في حربه مهما عنف ، فأن حذرك يضاعف قواك حتى تتقصف عليها سهام قدره .

وقالوا : « من الحكمة أن ينظر المرء فيما يؤثره من الأمر ، فيضع الخوف والرجاء فيه موضعه ، فلا يجعل الخوف في غير المخوف ، ولا الرجاء في غير المدرك . . وطالب الفضل بغير قدر تائه حيران . وأشد الفاقة عدم التعقل .

وإياك يا دمنة أن تأمن مكر عدوك أو تخدع عن حقيقته ، وإلا وقعت في شراكه فغدوت فريسة له . وكانت عاقبتك عاقبة الكلب المخدوع الذي غرّه دهاء العدو ، فلم يحفل بقول العلماء : « الحازم لا يأمن عدوه على كل حال ، إن كان بعيداً لم يأمن مكاوحته ، وإن كان قريباً لم يأمن وثوبته ، فأن رآه متكشفاً لم يأمن استطراده وكمينه ، وإن رآه وحيداً لم يأمن مكره » .

قال دمنة : وما طاقة الكلب المخدوع ؟

قال كليلة : زعموا أن جماعة من الذئاب النهمة سطت ليلاً على [illegible] كبيرة من حظائر الغنم ، فأصلت فيها مخالبها وأنيابها ، تمزيقاً في اللحم ، وولوغاً في [illegible] وفتكاً بالأرواح البريئة الناجمة الوادعة ، وهتكاً لستار الليل الهادئ الساجي .

فلما أحس بها الكلب الحارس ، وفاجأه الفناء المذعور يشق حجاب الظلام ، ويزلزل أرجاء الحظيرة ، ويزعج بألفاظه الحزينة سكينة السمر ، ويعلن بنواحه المفجع مصرع السلام في أمة الغنم — قام من رقاده منزعاً ينبحها ، ويتحفز بها ، ويطاردها حتى أوشكت جماعة الذئاب أن تولي الأدبار ، لولا ذئب عجوز هركته التجارب وضرّس أضراسه حصرم الدهر ، ففكر وقدر ، وكان ذا حيلة وحنكة ، ودهاء رجيلة ، ولم يطل به الفكر ، حتى اهتدى إلى مفتاح المعضلة المحتدمة ، فغض أغلاقها ، وكأنما صبّ على ضرام الكلب المستعر جرة ماء أخذته وطمرته في هأة من الطين الأسود ! !

قالوا : وانعطف الذئب الأريب إلى الكلب الثائر ، فتلقاه قائماً بين يديه ، متظاهراً بالخضوع المتزلف ، قائلاً : —

كيف تلقانا هذه التلقيا يا سيد الكلاب ؟ ونحن ما جئنا إلاّ لنضطلب ودك ونضع بين يديك طاعتنا ، ونحمل إليك ولاء زعيمنا السرحان المهيب ، ونعلن في ساحتك إخلاص أمة الذئاب ، فقد سمع كبيرنا أنك زعيم الكلاب في هذه الديار ، فشرفنا بالسفارة إليك سائلين — باسمه — فروض الولاء ، وعواطف الصداقة ، والرجاء الآمل في أن تنال أمة الذئاب في رحابكم أمنها وطمأنينتها ، وأن تزول أسباب الجفاء التقليدي الذي وسمت به أمة الذئاب وأمة الكلاب على السواء ، وأن تبدّد هذه الأحقاد التي توارثها القبيلان جيلاً بعد جيل ، من غير أن يدري أحد مأتاها ولا مذاهبها ، وأن تقوم بيننا الصداقة الأكيدة ، والتآلف الدائم لخير الطائفتين .

ولقد بحث العداء في مملكتنا ونفيرا واستقصرا . فلم يجدوا في الكلب — قديمها وحديثها — ما يبرّر هذا العداء ، بل — على النقيض من ذلك — اهتدوا إلى أننا أبناء فصيلتين متقاربتين — إن لم نقل : أبناء فصيلة واحدة ! !

ومنتهى ما وصلوا إليه من أسباب ظنية انه خصام استحدثته ملابسات حياتنا

وحياتكم منذ أنستم أنفسكم أنكم إلى بني الإنسان وظلمتموهم في وحشيتكم وجهالتكم، واتصلت بينكم الأسباب، فاستشر الأسباب سطوتكم وحدبكم على أمة الغنم التي زعم أنها أعداؤها وما كان لهذه الأمة الغبية أن تثور بين صداقتنا، ولكننا لن نتوانى - في سبيل احتفاظنا بود سيدنا زعيم الكلاب - أن نقدم له ما يرضيه بشأنهم، وقد أمرني أمير الذئاب أن أؤكد لزعامتكم محافظتنا على أمة الغنم المشمولة بحمايتكم، وتوفير الأمان لها اتباعاً لحسن مقاصدنا وخلوص طوياتنا، ونقاء سرائرنا.

وقد رأى زعيمنا اللبق أن من الكياسة والحكمة أن تغمر هذه الصداقة الجديدة بهدية ثمينة لائقة بمقامكم السامي، ومنزلتكم الرفيعة في أمة الكلاب، فحملنا إليك كومة كبيرة من العظام، أوينا بها إلى هذه الحظيرة مقر عرش سيدنا الهمام، حتى يؤذن لنا بشرف المثول بين يدي مولانا، وها نحن أولاء مقدموها في تواضع وخشوع وضراعة ملتمسين شرف القبول للهدية المتواضعة التي يرفع من قدرها حسن رضاكم عنها وجميل استقبالكم لها، وقد قال حكيم الشعراء: إن الهدايا على مقدار مهديها!

وسمع الكلب هذا الثناء فابتهج، ولمعت عيناه ببريق الخيلاء، وانتفخت أوداجه، واشرأبت مفاطسه، وصرت أذناه، واهتز ذيله طرباً، وأقبل على مؤخرته تيهاً وكبرياء، ودق نباحه ودق، حتى استطال أنغاماً من الترحيب والتودد، لا يقطعها إلا اللعاب المتدفق غزيراً من جميع أنحاء فمه القرم، وتخلت عنه كلبيته جملة حينما ألقى إليه الذئاب بعظام فرائسها من الأغنام الشهيدة.

فاستلذ واستساغ، وظن - أفرط الملاهة - أن هذه الهدايا من أفخر ما تذخر به بلاد الذئاب لا من أشلاء عشيرته المنكوبة ومن نفسه بالعظام الشهية التي ستمد له على صراط الصداقة الجديدة المباركة بلا انقطاع.

وبسط فراخيه يأكل، وخياله يسبح في جو من العظام الطائلة التي ستغدقها عليه المحالفة السعيدة التي ساقتها إليه السماء ويقفز به الخيال الجميل إلى السيادة المطلقة على رعاياه المحدثين من أمة الذئاب التي أتته صاغرة تنشد سيادته، وتبغي الخضوع لعزة جلاله المطلق.

وانهمك في عرق العظام والتهام ما عليها من نفايات الذئاب! وأمعنت الذئاب في إهماله واستغفاله واستذلاله وخديعته، وانبعثت - في غفلته وطموحه إلى بقية الحظيرة تعمل فيها أنيابها ومخالبها بقوة أعتى وأعنف وأشد، وعاد الثغاء المستغيث الباكي أعلى مما كان

وأشد إيلاماً وأجلب للشفقة والرثاء ولكن الذئاب تستبد وتضري ، ولكن الكلب الذي تزوغ عيناه فيما يلقى إليه بين الحين والحين من فضلات الذئاب ، فيترك هذه لينهم على تلك ويلقي بساق ليلتقط عظماً ، ريثما كنت أيعطف رأساً .. وهكذا .. حتى أتمها .

وفزعت الذئاب حين سمعت صوته مستطيلاً ، وحسبت أنه ثاب إلى رشده ، وترقبت منه الشر ، ولكنها اطمأنت لما علمت أنه كان يتثاءب ، ثم .. ثم نام ! ولم يعد يسمع ثغاء الشاء الا أحلاماً سعيدة تتردد من بعيد في مسامعه ، وكأنها هتاف الرعايا ، وأناشيد الوفود الوافدة بالولاء والهدايا وكومات العظام ! !

وكذلك شغل الكلب عن مهمته بالعظام والأحلام ، حتى أتت الذئاب على ما في الحظيرة من شاء ، فلم تبق فيها ضيئة ولا عجفاء !

وخرجت جماعة الذئاب تلعق شفاهها ، مرحة ضاحكة من حمق الكلب ، تهتف لصاحب الحيلة ، وتسخر من صاحب الغفلة ، وتقهقه ملء أشداقها فيتردد الصدى هزيماً في مسامع الكلب النائم المثقل ، فيتخيله دعاء الولاء والبركات ، ويتسمعه وكأنه اصطكاك العظام الفاخرة المتراكمة المحمولة من بلاد الذئاب مع الوفود الوافدة بالولاء والهدايا وكومات العظام . ولم يوقظه من أحلامه الخصبة في الصباح إلا عصا الراعي المغيظة ، تصك منه الضلوع انقضاضها ، وتنفذ إلى موضع القلب منها ، فتهتك حجابه وتمزق أحشاءه ، فلا تترك له فرصة من الدنيا الا ريثما يفتح عينيه على الحظيرة فيجدها خراء .. الا بقايا من الأصواف المتناثرة ، والدماء المطلولة ، والقرون الدامية ، والأظلاف المبعثرة !

وإلا ريثما يعوي عوة نادمة نادبة ، يخرج معها آخر أنسام الحياة !

فهذا جزاء من يخدع عن نفسه ، ويأمن عدوه ، ويتورط بلاهته وحمقه في المهالك

قال دمنة : حقاً ، إن الحذر من العدو إيثار للعافية ، وطريق إلى السلامة ، والعاقل من وُعظ بغيره ! !